الدرس الثامن

اختيار الموضوع (الإشكالية) (1)

إن إحساس الباحث الملح بوجود موضوع جدير بالدراسة أو شعوره بوجود مشكلة يراد حلها، هما البداية المنطقية للقيام ببحث تاريخي علمي وأصيل. وهذا هو السبيل السليم إلى الإبداع الفكري والأصالة العلمية؛ إذ أن أفضل البحوث وأرفعها ما كان مصدره الإلحاح الداخلي، والرغبة الذاتية، فالاختيار الشخصي للبحث مهم جدا في تقدمه وتفوقه. وعليه يعد الشعور والإحساس بمشكلة البحث نقطة البداية في البحث، الإحساس بالمشكلة باستعمال الفكرة والتفكير لإيجاد الحلول المناسبة بصورة موضوعية علمية، فهو إذن محرك للفكر ولإثارة التفكير بصورة مستمرة ومنتظمة ما دامت المشكلة قائمة وبحاجة إلى حل. وتنبع إشكالية البحث من الشعور الباحث بحيرة وغموض تجاه موضوع معين، فالإشكالية هي موضوع الدراسة. وهذا يعني أنه على الباحث (المؤرخ) أن يختار مجالا من المجالات العديدة التي تحتاج إلى بحث، وقد يكون هذا المجال متضمنا عدة مجالات فرعية وقد يصعب الاختيار لاسيما إذا كانت المجالات متقاربة أو كانت مجالات فرعية لمجال أوسع.

وتحتل مسألة عملية اختيار الموضوع أهمية قصوى في المنهجية الناجحة للباحث المستجد والمحترف. ويعتبر سر نجاح البحث عادة في انتقاء سؤال جيد وموضوع بحث جيد. أن اختيار الموضوع وتقييم انجازه يمثلان المرحلة الأولى من طرح مشكلة البحث. ومن التجربة في الميدان نلاحظ أن السؤال الأول الذي يقدم للباحث، سواء كان مستجدا أم متمرسا، هو الموضوع الذي يبحث فيه، إذ يجمع كل المؤلفين على منح عملية اختيار الموضوع أهمية قصوى. فسر النجاح في البحث عادة ما يكمن في انتقاء سؤال جيد وموضوع بحث جيد، بمعنى أن عملية الاختيار مسألة على غاية من الأهمية، وهي التي تستوجب من الباحث أن يتأنى في قراره النهائي إلا بعد أن يستشير العارفين في الميدان ممن لهم التجربة والدراية التي تمكنهم من تقديم الرؤى التاريخية للموضوع ليتمكن الباحث من بعد اتخاذ القرار الصائب في نهاية المطاف.

ومن أجل إيجاد موضوع للبحث، لابد من أخذ الوقت الكافي للتفكير في ذلك، وهذا الأمر يفسح لنا المجال من أجل دراسة الاحتمالات المختلفة، لأن التفكير الكافي والعميق هو الطريقة الوحيدة لتجنب العودة إلى الوراء. ويقوم هذا التفكير أساسا على الفائدة التي نريدها من اختيارنا لهذا الموضوع أو ذاك. لكون عملية التفاعل الذاتي للباحث لا يمكن أن تتحقق، إذا كان الموضوع ذا فائدة محدودة، بمعنى آخر أنه يظهر للباحث أنه موضوع غير جدير بالاهتمام ولا يثير الفضول، ومن المنطقي جدا أن يدفع هذا الحال بنا إلى عدم استثمار جهد كبير في البحث، ومن المحتمل أن يضيع من الباحث الحافز. ونتيجة لذلك قد يؤدي بنا الحال إلى عدم مواصلة العمل إلى نهايته.

لابد من الإشارة هنا إلى أن مسألة اختيار موضوع البحث بالنسبة إلى الطالب في مرحلة الدراسات الأولية (الليسانس والماستر)، تختلف عن الباحث الذي يلتحق بالدراسات على مستوى أعلى (الدكتوراه) ، ففي مرحلة الدراسات الأولية لا ينتظر من الطالب أن يقدم بحثا علميا أصيلا بالدرجة الأولى بقدر ما مطلوب منه الإتقان والاستيعاب عبر مراحل التدريب والإعداد التي يتلقاها خلال فترة الدراسة، وذلك لتلافي الأخطاء والهفوات التي قد تواجهه في المراحل القادمة من عمله البحثي في المستقبل. ويشير الدكتور مرتضى حسن النقيب إلى مسألة اختيار الموضوع لا تشكل ضغطا على طلبة الدراسات الأولية في الجامعة، بالقول: "ومع إن مثل هذه المشكلة لا تظهر بشكل واضح عند طلبة البكالوريوس (الليسانس) لأن أستاذ المادة هو الذي يقرر في معظم الحالات اختيار مواضيع التقارير الفصلية (بمعنى بحوثهم) لمراحل هذه الدرجة، خاصة في المراحل الأولى منها، إلا أنها مشكلة أساسية عند طلبة الدراسات العليا، التي يجب أن يتحمل فيها مسؤولية الاختيار شخصيا". وبناءا على ذلك، يتم اختياره لموضوع البحث عادة بإرشاد أساتذته الذين يشيرون عليه بمواضيع تاريخية متنوعة لها علاقة بالمقاييس التي يدرسها خلال فترة التكوين. ومن خلال هذه العملية يتمكن الطالب من التعرف على الموضوع والإحاطة به بسهوله. ويمكنه أن يزيد معلوماته الأولية عن موضوع البحث المختار في هذه الحالة نتيجة قراءته للمصادر والمراجع التي تخص تلك المقاييس. وكذلك يمكن بلورة الأفكار الأولية

عبر مراجعات الموسوعات والمعاجم التي توفر المعلومات السريعة عن الأعلام والأماكن، وتزويده بقائمة من المصادر والمراجع التي لها صلة بالموضوع المبحوث. ومن ثم، يتجه الطالب إلى المؤلفات الأكثر تخصصا بموضوع بحثه، ليستخلص منها المعلومات التي يستعين بها في إعداد البحث. ومن خلال هذا البحوث الصغيرة التي لا يتجاوز عدد صفحاتها عن (30) صفحة، يستطيع طالب التاريخ في مرحلة الدراسات الأولية من التدرب على آليات استخدام المصادر والمراجع، وتبويبها، فضلا عن ترسيخ مفاهيم البحث التاريخي الصحيحة عبر القراءة والمراجعة وترتيب المعلومات وتحليلها، فضلا عن استخلاص النتائج عبر التفكير وتنمية ملكة النقد. وهذا يجعله قادرا في المستقبل على تقبل مشاق العمل البحثي في ميدان الكتابة التاريخية. ويتفق جمع المختصين في ميدان منهج البحث التاريخي وتقنياته على أن الطالب الذي يتمكن من اختيار موضوع بحثه يكون دائما على مستوى عال من التفوق والنجاح، وقد أثبتت التجارب التي مررنا بها أن الطلاب الذين يتوفقون في اختيار الموضوعات بأنفسهم يكونون أكثر تفوقا ونجاحا وسعادة بالعمل من أولئك الذين يعرض عليهم موضوع بحث معين.

وعليه، فإن طالب الدراسات الأولية لا ينتظر منه أن يقدم بحث علمي مبتكر أصيل، يستخلص فيه حقائق تاريخية مجهولة، أو يكشف عن مجموعة من الوثائق لم تكن معروفة من قبل. ولكن المطلوب منه هو أن يكتساب وسائل الإعداد والتدريب التي تؤهله للعمل التاريخي في المستقبل.

أما في مرحلة الدراسات العليا (الدكتوراه) والعمل البحثي الأكاديمي، تأخذ الأمور بعدا آخر يختلف تمام الاختلاف عما اعتاد عليه الباحث المبتدئ من آليات عمل في انجاز البحث المكلف به. والبحوث في هذه المرحلة قبل كل شي، تمتاز بمقومات ومميزات معينة، نذكر منها: أنها أطول وأكبر من حيث الحجم والمادة العلمية التي يجب أن تضمها؛ كما أنها يجب أن تمتاز بالجدية والأصالة والابتكار، لأنها ستكون جزءا أساسيا من المقاييس التي يجب أن يستوفيها الطالب للحصول على الشهادة العلمية.

وفي هذا النوع من البحوث تقع مسؤولية الاختيار على عاتق الباحث وحده، الذي يجب أن يقرأ ويطالع الكثير من المصادر والمراجع التي لها علاقة قريبة بالموضوع المنوي البحث فيه. وأن عملية الاختيار هنا، ليست بالأمر الهين والسهل، وعليه نجد العديد من طلبة الدراسات العليا هنا يخطئون باللجوء إلى أساتذتهم لتجاوز هذه المعضلة ومساعدتهم في اختيار الموضوعات التي يبحثونها. وهذه المسألة فيها من المحاذير الكثير وفي مقدمتها: جهل الأساتذة لميول الطلبة أو قدراتهم الحقيقية، فيشيرون عليهم بموضوعات لا تتوافق مع قدراتهم وميولهم. ولهذ الأمر انعكاسات سلبية على مسيرة الطالب في إنجاز البحث المكلف به، إذ سرعان ما يتعثر نتيجة لعدم انسجامه مع الموضوع أو عدم الرغبة فيه. وتكون النتيجة تعثر الطالب وتأخره ومحاولاته المستمرة لتغيير موضوع بحثه، ولهذا يجب الانتباه جيدا إلى موضوع الاختيار، لأن أي خطأ في هذه المسألة قد يوقع الطالب الباحث في متاهات يمكن أن تؤدي إلى بعثرة جهوده.

ومن خلال حديثنا السابق، نجد أن عملية اختيار الموضوع في هذه المرحلة الهامة من التكوين الأكاديمي تأخذ بعدا مختلفا عما كانت عليه خلال فترة الدراسات الأولية. والسبب الذي يجعلها مميزة أنها تتطلب من الباحث أن يختار الموضوع بالاعتماد على نفسه، والموضوع الذي يناسب قدراته وإمكانياته العلمية والمنهجية. ويجري تحديد ذلك بالتشاور مع الأستاذ الذي يرى فيه مناسبا في تقديم بحث لائق من الناحية العلمية والمنهجية. ومن هنا، يتضح لنا، أن مسألة الاختيار هي مسؤولية تضامنية وتكاملية بين الباحث والمشرف، وهي عكس ما كانت عليه خلال مرحلة الدراسات الأولية حينما يكون الأستاذ المسؤول على المقياس أو المشرف في بحوث التخرج هو الذي يأخذ على عاتقه المسؤولية كاملة باستثناء حالات قليلة.

ومن الأمور التي يجب أن يأخذها الباحث بنظر الاعتبار أيضا، هي مراعاة أن تكون بداية الموضوع ونهايته ذات دلالة خاصة، بمعنى أن يكون عنوان الموضوع واضح الدلالات، فعلى سبيل المثال عنوانا مثل: "السياسة الاستعمارية في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي" لا يعطي الانطباع على أن الباحث قادر

على تقديم صورة تاريخية واضحة المعالم لكثرة الأحداث وتداخلها، فضلا عن كون العنوان لا يعني مرحلة تاريخية محددة المعالم، ومن الأفضل أن يكون العنوان: "السياسة الاستعمارية في الجزائر مابين 1830-1914م"، لأن هذا العنوان يعني مرحلة تاريخية متميزة.

وإذا تبين للباحث خلال فترة إعداده لبحثه أن المرحلة التاريخية التي تناولها طويلة، أو أن المادة التي جمعها مركزة في أحد جوانب الموضوع السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، فمن الضروري للطالب أن يعدل موضوع بحثه أو يحدد بشكل أدق المرحلة التاريخية التي يود معالجتها.

وعليه، وبالرغم من أن المواضيع التاريخية التي يمكن الكتابة عنها كثيرة ومتنوعة، إلا أن محاولة اختيار الموضوع ليست بالأمر السهل واليسير، كما يبدو للوهلة الأولى، والحاجة ضرورية في إعطاء هذه العملية العناية اللازمة لها، لذا التمهل في انتقاء الموضوع أسلم من الإسراع في ذلك، حتى لا يتنقل الباحث من موضوع إلى آخر بشكل ينم على الارتباك والعجز في الاستقرار على موضوع الذي يستحق البحث والدراسة.